مقدمة

الطبعة الثالثة

ما أروع أن نستكشف فى الأدب الشعبى خلجات الشعوب النفسية واهتماماتهم الروحية ، بعد أن كانت محجوبة عنا ، حينما كنا — وكما يرى الكثيرون الآن — لا نعرف من الأدب الشعبى سوى أنه خرافات لا صدق وراءها ! ولم يكن ذلك الا بفضل هؤلاء الذين قدروا قيمة الكلمة فى كل صورها . فالانسان لا ينطق بكلمة — فضلا عن أن يستخدمها فى تعبير أدبى — الا اذا كان وراء ذلك مغزى . واذا كان الفرد قد حرص على أن يضع اسمه على عمله الأدبى ، اعتزازا بعمله ، وحرصا منه على ألا ينسب هذا العمل الى أى انسان اخر ، فهل يكون نصيب التعبير الأدبى الشعبى الاهمال لمجرد أنه لم يكن ملكا لفرد بعينه ؟

ان الادب الذاتى يختلف ولا شك فى شكله وتعبيره عن الأدب الشعبى . فالانسان الفرد الذى يحرص على أن يدون اسمه فى تاريخ الادب ، يتحتم أن يكون أدبه مجليا لذاتيته ولروح عصره . فاذا فشل فى تحقيق ذلك ، فان هذا الأدب لا يعيش مع الأجيال . واذا هو قدر له ان يعيش ، فلفترة قصيرة . أما الادب الشعبى فهو ينبع من الوعى واللاشعور الجمعى . واذا كانت هناك مظاهر لهذا اللاشعور الجمعى مثل الأحلام ذات الطابع غير الفردى ، التى يمكن أن يراها الانسان فى كل زمان ومكان ، فلماذا لا تكون هناك مظاهر أخرى له تفرض نفسها فى شكل تعبير أدبى ؟ ان نشاط اللاشعور الجمعى كبير للغاية . وعنه تصدر الأفعال والتعبيرات الواعية التى لا يمكن ادراك مغزاها الا اذا بحثنا عن جذورها النفسية . فالطقوس والسحر وميلاد الطفل البطل ، وكثير من خيالات الحكايات الخرافية ، كل هذا لا يحتاج الى شرح فولكلورى فحسب ، وانما يحتاج الى الكشف عن جذوره التى تنبع منها ، أى الى الكشف عن تلك الاهتمامات الروحية التى دفعته

الى الظهور • فالأسطورة الكونيـــة وأساطير الأخيـــار والاشرار والحكاية الخرافية والحكاية الشعبية واللغز والمثل الشعبى والنكتة ، والأغنية لشعبية ، كلهـا أنوع أدبية شعبية • ولكنهـا ولاشـــك أشكال يختلف بعضها عن البعض الاخر اختلافا جوهريا ، وان كانت صفة الشعبية تجمع بينها • ويرجع سبب الاختلاف الى ان كـــلا منها ينبع من مجال محدد من مجالات الاهتمام الروحى الشعبى • وهذا المجال هو الذى يحدد شكل كل نوع ووسيلة التعبير فيه •

ومهمتنا فى هذا الكتاب أن نقدم دراسة لكل نوع من الأنـــواع الأدبية الشعبية التى سبق ذكرها ، تلك التى تظهر فى الأدب الشعبى العالمى كله • ومن شأن هذه الدراسة أنها تتركز حول الشكل ، وحول الدافع الروحى الذى يدفع النوع الأدبى الشعبى الى الظهور ، ثـم حول وظيفة كل نوع فى الحياة الروحية الشعبية •

وهناك مشكلة أخرى تثار عند دراســة الادب الشعبى خـلاف مشكلة دوافعه الشعبية ، تلك هى مشكلة تأليف هـذا الادب • فمنذا الذى يؤلف هذه الانواع الأدبية بأشكالها المحددة ؟ أهو الشعب كله أم هو فرد بعينه ؟ وهل من المعقول أن الشعب كله يمكن أن يجتمع ليؤلف أسطورة أو حكاية خرافية أو شعبية على سبيل المثال ؟ أو هل يمكنه مجتمعا أن يؤلف النكتة بشكلها الموجز المليء بالغزى والسخرية ؟ ان هذا لا يمكن أن يحدث بطبيعة الحال • ولم يبق سوى أن نفترض الأصل الفردى للانتـــاج الأدبى الشعبى • وهـــذا الفرد الخالـــق لا يعيش حياة ذاتية بعيدة عن المجموع ، وانما يعيش حيـــاة شعبية صرفا • وهو بما له من نشاط ابداعى خلاق ، يخلق الكلمة المعبرة التى سرعان ما تلقى هوى بين أفراد الشعب جميعه ، اذ تكمن فيها روحـــه وتجاربه ومشكلاته •

وربما استطعنا أن نوضح هذا القول بطريقة أفضل اذا نحن حاولنا تقسيم الشعب من حيث العمل الى فئات ، ثم رأينا مدى أثـــر ذلك فى اللغة • فالشعب ينقسم من حيث العمل الى المنتج والمشكل أو المبدع والمفسر •

فالزارع ينتج ، بمعنى أنه يستغل ما تهبه الطبيعة بطريقة تخدم الانسان • وحيث أن الحياة تعنى التجدد ، فان الطبيعة يتحتم عليها أن تتجدد ، والمزارع يصنع هذا دون أن يعوق الطبيعة عن المضى فى مجراها • فهو يبذر الحب وهو يحصده وينظم أحوال الزراعة وفقا لظروف الطبيعة ، وهو يربى الماشية ويستغل منتجاتها ، أى أنه ، بعبارة أخرى يستغل كل امكانيات الطبيعة فى الحياة العادية ، ويحرك الجامد منها •

أما العامل فهو يخلق ، ويتمثل هذا الخلق فى أنه يشكل ما تمنحه الطبيعة وما ينتجه المنتج بطريقة يكف عندها ما هو طبيعى عن أن يكون طبيعيا . فما يخلقه يصبح جديدا حقا • فهو لا يستغل الحبوب بحيث يزرع بعضها فتنتج منها حبوبا أخرى ، ولكنه يستغلها استغلالا آخر بحيث تأخذ شكلا جديدا هو الخبز • كما أنه لا ينظم زراعة الأشجار، ولكنه يأخذ أخشابها ليستخدمها فى خلق شكل جديد هو الأثاث مثلا، وهكذا •

على أن أمور الحياة لا تستقيم بالانتاج والخلق وحدهما ، ولكنها تتطلب قوة أخرى هى القوة المفسرة . فكل عمل لا بد أن ويحتوى على معنى ، والوصول الى هذا المعنى يصل بالعمل الى حد الاكتمال • وهكذا ينضم الى المزارع والعامل رجل آخر هو المفسر • فماذا يعنى المسكن الذى يبنيه العامل مما تجود به الطبيعة ؟ وماذا يعنى المسكن بمعناه الواسع : مسكن الآلهة ومسكن الأموات ؟ أى ماذا تعنى المعابد والقبور ؟ وماذا تعنى الحدائق والزهور ؟ وبهذا يخلع المفسر على الحياة أهميتها ، ويساعد الناس فى ادراك هذه الأهمية ، فاذا هم يفهمون للأشياء مغزى غير مغزاها الحسى •

وهكذا تتسع دائرة العمل . فالزارع يرتبط بالطبيعة كل الارتباط، ولكنه ينظمها لمصلحته • أما العامل فيخرج عن دائرة الطبيعة ويخلق ما لم تخلقه الطبيعة • ومرة أخرى تتسع الدائرة لدى المفسر ، فهو لا يكتفى بتفسير ما أنتجه الزارع وما صنعه العامل ، ولكن تفسيره يشمل ما لم يصنع ، فهو يفسر الأجرام السماوية ، كالشمس والقمر والنجوم، ثم تتسع دائرة تفسيره فتشمل غير المرئيات وغير المحسوسات •

وهكذا تتمثل أمامنا النماذج الثلاثة فى حدودها المكانية ، وفى حركتها فى حـدود المكـان ، فالزارع ينتمى الى رقعـة الأرض التى يزرعها ، فاذا هو هجرها كف عن أن يكون زارعا • والعامـل يقيـم حيث تختفى المناطق المزروعة ، ليشكل أشكالا من المواد التى تجود بها الطبيعة • ان الفلاح يرتبط بأسرته كل الارتباط ، فاذا ارتبط بغيره ، فانما يكون ذلك من أجل عمله • أما الصانع أو العامل ، فانـه يتحد مع غيره من أصحاب الحرف مكونا جماعة من العمال أو الصناع • وأما المفسر فهو مستقر ومتحرك فى الوقت نفسه • حقا أنه لا يتجول فى أنحاء العالم ، ولكنه يبحث عن مركز يتأمل منه أحوال الحياة • انه وحيد ولكنه يكون فى الوقت نفسه مركزا لجماعة تجتمع حوله • وهكذا نرى النماذج الثلاثة متمثلة مرة أخرى فى الأسرة والجماعة والمجتمع •

واذا كنا قد قسمنا الشعب هذا التقسيم ، فاننا لا نعنى بذلك أن نشير بذلك الى نظرية اثنولوجية . وانما نود أن نبين فحسب مـدى انعكاس هذا التقسيم فى اللغة التى يعبر بها الشعب عن رغباتـه وتصوراته • ذلك أن العمل الذى تحققه هذه النماذج انما يتمثل مرة أخرى فى اللغة • وهو يتمثل عن طريقين • الطـريق الأول هو أن كل ما ينتج أو يخلق أو يفسر يتحدد لغويا • أما الطريق الثانى فهـو أن اللغة نفسها منتجة وخالقة ومفسرة • فاللغة كالحبوب ، تزرع وينمـو منها النبت ، فاذا خفنا — على سبيل المثال — من أمر ، فاننا ننطـق توا بكلمة أو عبارة هى بمثابة تعويـــذة مثل عبارة « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! » كما اننـا اذا كنا نؤمل فى أمر فاننا نقول بتفاؤل بعيد « ان شاء الله » • فالكمة هنا ينمو عنها شىء اخر غير مجـرد الكلمة نفسها • وهذا الشىء يهدف اما الى حمايتنا مما يفزعنـا ، واما الى تقوية الأمل فى نفوسنا • اننا نطلق على ذلك كلمة «خزعبلات » ، ولكننا لا بـد أن نقر بأن هذه الخزعبلات تخفى علما ، وأن الـكلمة ليست كالحبة الجافة ، وانما هى كالنبات المثمر • كما أننا اذا بحثنا عن الألفاظ التى تنتج من جذر واحد مثل « لف » فاننا نجد : تلفف واللفافة واللفائف والتلفيف ، وهذا يدلنا على أن البذرة اللغوية تنبت نباتا متجانسا • ونلاحظ هنا أن الانتـــاج اللغوى يعنى — كما يعنى

الانتاج عند الزارع ــ التنظيم الذى يتسرب فى حياة الناس ويعمل على تجديدها ونموها •

وكما أن اللغة تنتج وتثمر ، فانها تكون كذلك قادرة على الخلق • فاللغة تخلق الشكل أو الصورة ، وذلك عندما توجه توجيها أدبيا • وهى تصنع بذلك ما يصنعه الصانع حينما تستغل المادة الطبيعية فى خلق شكل أو صورة جديدة • اننا نعرف أودسيوس ودون كيوخته وفاوست وعنترة معرفة أعمق من معرفتنا للشخصيات الحية التى تعيش معنا • وهذه الشخصيات لم تصنعها سوى اللغة • فاللغة حينما تخلق ، ينشأ الأدب ، وان لم ينشأ هذا الأدب عن أديب بعينه • ومن خلال هذا الأدب نشعر بشىء يهزنا ، شىء يتغير ، بل شىء يتجدد • ان الانسان المرموق يسجل التاريخ والأدب معا معالم حياته ويبرزان شخصية • وحينئذ تتكون له صورتان : صورة تاريخية وأخرى أدبية • والبون شاسع بين الصورتين • فنحن نعرف شخصية عنترة وشخصية السيد البطال من الأخبار والحكايات ، ولكننا لا ندرى الى أى حد تتفق هاتان الشخصيتان مع الشخصيتين الواقعيتين • ومثل الشخصيتين الأدبيتين بالنسبة للشخصيتين الواقعيتين ، كمثل الخبرة بالنسبة الحب • لقد سحقت اللغة هاتين الشخصيتين وعجنتهما ثم صنعت منها خلقا جديدا •

وبهذا نأتى الى الوظيفة الثالثة للغة • وهنا نود ألا نستخدم كلمة التفسير ، وانما نستخدم كلمة الادراك أو التفكير •

حينما يتأمل الانسان المفكر الكون ، فانه يحس لأول وهلة أن عالمه هذا خليط مضطرب • فاذا ازداد تأمله ، فانه يحلل ظواهره المتعددة ، وما يلبث أن يضم الظواهر المماثلة بعضها الى بعض ، فاذا بعالمه قد تحلل الى وحدات مختلفة ، كل وحدة تضم مجموعة من الظواهر المتجانسة • فالمفكر فى هذه الحالة يحلل ويجمع عن طريق الادراك والتفكير • ان مثله مثل الفتاة فى الحكاية الخرافية ، تلك التى طرحت أمامها أكوام من الحبوب المختلفة المختلط بعضها ببعض ، ثم طلب منها أن تنظم هذه الأكوام ، بان تفصل كل نوع من الحبوب

عن الانواع الأخرى ، وأن تفعل ذلك فى مدة وجيزة • فلما شعرت الفتاة بعبء المهمة ، أعانتها الطيور الخيرة فى أداء مهمتها ، فلما طلع الصباح وجاء المارد أو جاء الانسان الشرير ليرى ما فعلته ، اذا بـه يرى الفوضى وقـد أصبحت نظاما •

وهكذا يفعل الأدب الشعبى ، انه يحول الفوضى الى نظام ، وكل نوع من أنواع الانتاج الأدبى الشعبى ، مثل الحـكاية الخرافية والاسطورة الكونية وأساطير الأخيار والأشرار الى غير ذلك ، انمـا يهدف الى تفسير جانب من جوانب الحياة ، ولهذا فانها تعد جميعا من صنع العقلية المفسرة القادرة على استغلال اللغة فى كلتا وظيفتيها ، وهما الخلق والتفسير •

على أن تفسير عملية ابداع الأدب الشعبى على هذا النحو يعد فى الحقيقة نظريا الى حد كبير • حقا ان الناس يختلفون فى مستويات تفكيرهما على نحو ما تختلف وظائفهم فى الحياة ، وحقا أن التأليـف الادبى يحتاج الى تلك الفئة التى لا تكون قادرة على التشكيل فحسب، بل على رد هذا التشكيل بادراك لحقيقة ما . ولكن اذا كان الأمر كذلك، فان تأليف الأدب الشعبى يصبح عندئذ نتاج فئة معينة وموجها لفئة معينة • وبهذا نكون غير بعيدين عن الابداع الأدبى الفردى الـذى ينحصر فى فئة معينة يكون من بينهما المبدع . كما يكـون من بينهمـا المستقبل • ولكن حيث أن الأدب الشعبى لا يمكن أن يكون شعبيا الا اذا استقبلته الجماعة الشعبية بأسرها وراددته • فلابد أن يكون التعبير الأدبى الشعبى ، مهما يكن مصدره ، معدا فى شكل يستهوى الجماعة بحيث تستقبله فور وصوله لها . وكأنه جزء من حياتها القديمة ومن رصيد ثقافتها القديمة• كما أن هذا المؤلف الفرد ، أن وجد ،لايستطيع أن يدعى ملكيته لهذا التأليف ، حيث أن ما توصل اليه من تشكيل أدبى انما يتألف فى الحقيقة من عناصر مفردة هى فى الاصل ميراث قديـم للشعب •

ويمكننا أن نؤيد هذا القول بشـاهد أدبى هـو سيرة عنترة فعنترة البطل شخصية تاريخية عاشت فى العصر الجاهلى ولم يدرك

الاسلام • وكان عنترة شاعرا بطلا ، وكانت لـــه مشكلته الاجتماعية الخاصة متمثلة فى عبوديته وسواد لونه اللذين حالا دون زواجه من ابنه عمه الحرة • هذه الشخصية التاريخية كان لها جاذبيتهـــا على المستوى الشعبى . فى العصر الجاهلى ، بقدر ما كان لهـــا فى العصر الاسلامى • وقد ظلت هذه الشخصية تنمو فى العصور الاسلامية حتى ألف حولها سيرة طويلة ظلت تـــروى فى البلاد العربيـــة حتى عصرنا الحديث •

ولابد أن البداية الأولى لتأليف هذه السيرة ترجع الى العصر الجاهلى • وقد تمثلت هذه البداية ، أو لنقل الأصول الأولى ، فى مجموعة من الأخبار المروية • وتمثل وظيفتة اللغة فى هذه المرحلة الأولى فى تنظيم مجموعة من الأخبار حول شخصية بعينها تستهوى الشعب • وقـــد استهوت شخصية عنترة الشعب العربى القديم لأنه لم يتسلم لمصيره وقدره ، بل وقف مكابرا ازاء هذا المصير حتى استطاع أن يغيره قولا وفعلا : قولا عن طريق الشعر وفعلا عن طريق البطولة •

ثم أخذت هذه الأخبار تتجمع وتتراكم فى العصر الاسلامى • ومن هذه الأخبـــار المتراكمه كانت تكون بالضرورة قصص قصيرة متكاملة • وهنا تدخل اللغة فى دور التشكيل الذى يستعان فيـــه بطبيعة الحال بالروايات والأخبار المتفرقة • والى هذا الحد نجد أن اللغة وما ينتج عنها من نظام وتشـــكيل هى ملك للشـــعب بأسره •

وعندما وصلت هذه القصص والأخبار الى العصر الاسلامى ، كان لابد أن توجه توجيها آخر يتفق مع طموح العصر الجديد وقيمه • وهنا ننتقل الى المرحلة الثالثة من التأليف اللغوى التى تؤدى مباشرة الى الابداع الفنى المتكامل الذى يصاغ لابراز حقيقة يعيشها الشعب ويهمه أن يتفاعل الجميع بها • وتكتسب شخصية البطل فى هـــذه المرحلة صفة الشمولية بدلا من الخصوصية ، كما أن طموحاته تتعدى المصـــلحة الشخصية الى المصلحة الجمعية • وهذا يعنى أن يتحرر البطل القيم من قيود زمانه ومكانه التاريخيين ليعيش فى زمن أكبر ومكان أرحـــب ولهذا فقد جعلت السيرة البطل يتحرك خـــارج الجزيرة العربية حتى

وصل ببطولاته الى أسبانيا ؛ كما جعلته مناضلا على مستويين : مستوى اجتماعى وهو نشر النظام والحق والعدل ، ومستوى سياسى وهو القضاء على القوى التى يمكن أن تقف مناوئة فى سبيل نشر الدعوة المحمدية .

ومن هنا نرى أن التعبير الشعبى لا يصل الى التكامل بحيث يصبح أدبا الا بعد أن تكون رواسبه قد استقرت فى ضمير الجماعة . ولعل هذا يفسر لنا فردية التأليف الشعبى وشعبيته فى آن واحد . ان المبدع الشعبى هو القادر على جمع العناصر التى تعيش بالفعل فى حياة الشعب وفى ضميره لكى يكون منها تعبيرا متكاملا ذا مغزى يهم الجماعة . وربما اشترك فى هذه العملية أكثر من فرد ، تمت على مراحل ، ولكنها عندما تتم ويستقبلها الشعب تصبح على الفور تراثا شعبيا .

واذا كنا قد وصلنا الى هذا الحد من تفسير معنى الشعبية فى التعبير الشعبى ، فاننا نتساءل بعد ذلك عما نعنيه من اصطلاح « الشعب » . فنحن عندما نتحدث عن الشعب المصرى على سبيل المثال فانما نعنى كل فرد من أبنائه مهما تكن درجة ثقافته ومهما يكن مستواه الاجتماعى . ولكننا عندما ننطق بعبارة « الأدب الشعبى » أو التراث الشعبى ، فاننا نكون على وعى تام باننا نعنى نتاج جماعة بعينها وليس الشعب بأسره . فما هى هذه الجماعة ؟ ولماذا أصبحت موضوعا للدراسة الشعبية دون غيرها ؟

هنا يتحتم علينا أن نقف وقفة مع آراء الباحثين الذين عرضوا لمفهوم الشعب بالنسبة للدراسة الشعبية . فنجد أن منهم من وسع رقعة الجماعة الشعبية بحيث شملت الشعب كله فى مستوياته الثقافية والاجتماعية المختلفة . ومنهم من حددها فجعلها تلك الجماعة التى يربط بينها اهتمامات نفسية مشتركة يعبر عنها بشكل أو آخر من التعبير ، وان تكن هذه الجماعة متفرقة ولا تجمعها رقعة محددة من الأرض . ومنهم قصرها على الجماعة المرتبطة برقعة محددة من الأرض الأم ويربط بينها تقاليد وعادات وأنماط واحدة من السلوك ، أى تلك

الجماعة التى تعيش فى اطار تكوين شعبى موحد ومعترف بـــه من الجميع •

أما أصحاب الرأى الأول فحجتهم فيه هو أن كل فرد من أبنـــاء الشعب الواحد يحتوى فى سلوكه وفكرة على قدر من الشعبية قـــل أو كثر • ولهذا فانه ينبغى علينا أن نتساءل عن الحس الشعبى فى الشعب بدلا من أن نتساءل عن الجماعة الشعبية • ويتكون هذا القدر من الحس الشعبى بين أبنـــاء الشعبى الواحد نتيجة وجود أكثر من عامل قديم يجمع بينهم • وبتعبير آخر ان الشعب الذى يجمع بين أبنائه حضارة واحدة يكون موضوعا للدراسات الشعبية •

وأما أصحاب الرأى الثانى فيرون أن التعبير الأدبى الشعبى الذى يعلن عن نفسه لا يمكن أن ينمخض عن جماعات مشتتة وان جمعها وطن واحد وعامل اللغة والدين • ولهذا فهم يرون تحديد نطاق الجماعـــة الشعبية بحيث تصبح تلك التى يجمعهما ، فضلا عن العناصر الحضارية العامة ، سلوك فكرى واحد نشأ نتيجة تقاربها فكريا واجتماعيا وان لم تجمع بينها رقعة محددة من الأرض • وعندئذ قد ينبثق عـــن هـــذا التقارب شكل أو آخر من أشكال التعبير • ويمكننا أن نتمثل فى هـــذا المجال بجماعة سائقى سيارات الأجرة التى تتكسب رزقها من هـــذا العمل • فقد لوحظ ظاهرة كتابة عبارات شعبية خلف هذه السيارات أو رسم رسومات معينة مثل القدم أو الكف أو العين ، أو تعليـــق بعض التمائم مثل الخرزة الزرقاء وغيرها•فهذه التعبيرات التصويرية أو اللغوية تكشف عن وجود رابطة نفسية تربط بين أصـــحاب هـــذه الجماعة • وهذه الرابطة اعتقادية وتتمثل فى الاعتقاد فى الحسد • فهذه الجماعة يمكن أن تكون موضوعا للدراسات الشعبية وان لم يجمـــع بينما مكان محدد واحد ، اذ من الملاحظ أن هذه الظـــاهرة تنتشر فى الريف والمدن وأقاصى الصعيد •

على أن هذه الجماعة ، وأن جمع بينها شكل من أشكال السلوك الفكرى الذى انبثق عنه نمط موحد من أشكال التعبير ، فهى لا تعـــد حاملة لكل أشكال التعبير الشعبى • ولهذا فانه يتحتم علينا أن نتساءل عن هذه الجماعة التى تحمل كل أشكال التعبير الشعبى وترويه •

وهنا نأتى الى الرأى الثالث الذى يرى أن الجماعة الشعبية التى ينبغى أن تكون موضع اهتمام الدراسات الشعبية فى المقام الأول ، هى تلك الجماعة المرتبطة بالأرض القديمة وتعيش فى اطار موحد من الفكر والسلوك والثقافة المتوارثة • انها تشمل جماعة الفلاحين والعمال والصيادين والبدو • فمن عند هؤلاء تبدأ الدراسات الشعبية ويبدأ جمع مادة التراث الشعبى وان سلمنا بضرورة توسيع مجال الدراسات الشعبية بحيث تستوعب الرأيين الأولين •

على أننا نتساءل عن سبب احتفاظ هذه الجماعة الأخيرة دون غيرها بحصيلة هائلة من التراث الشعبى بحيث أننا نلجأ اليها أولا دون غيرها لجمع مادة التراث • ولكى نجيب عن السؤال لابد أن نطرق الى خصائص هذه الفئة الأخيرة ، فربما كان فى تحديد خصائصها ما يكشف لنا عن الدافع الخفى وراء احتفاظها بمواد التراث وحرصها على روايتها • ويمكننا أن نلخص خصائص هذه الجماعة فيما يلى :ـ

أولا : ترتبط الجماعة الشعبية ارتباطا وثيقا بالأرض الأم القديمة التى احتوت تراث آلاف من السنين ، كما أنها تعيش على هذه الأرض باحساس قوى بوحدة الحياة حيث تتداخل نظرة الانسان الى العالم المرئى مع نظرته الى العالم الغيبى . وحيث تتشابك متعارضات هذا العالم فى وحدة واحدة من التفسير • أى أن هذه الجماعة تعيش فى ظل احساس قوى بوحدة الكون •

ثانيا : يترتب على هذا الاحساس العميق بوحدة الكون أن الانسان الشعبى يحن دائما الى الاحساس بالقدسية ، سواء بالنسبة الى مفهوم المكان او الزمان • فالمكان الذى يرغب فى أن يسكنه ويعيش فيه حياته المنظمة ، لابد أن يجرى فيه شكلا من أشكال طقوسه المقدسة •ويكتمل الاحساس بقدسية المكان عندما يشيد وسط هذا المكان رمزا للقدسية كأن يكون جامعا أو كنيسة أو حتى ضريحا لولى • عندئذ يأنس الانسان لهذا المكان لأنه يرى فيه صورة مصغرة لقدسية العالم الآخر • أما المكان الآخر الذى لم يسكنه ولم يجر فيه طقوسه المقدسة ، فهو يقف معارضا للمكان الأول من حيث أنه يصبح مأوى للعفاريت والجن، أى أن المكان الأول يكون رمزا للخير فى حين أن الثانى يعد رمزا للشر•

وكما يحن الانسان الشعبى الى المكان المقدس ويضفى على عالمه من روح هذا العالم ، كذلك يحن الى الزمن المقدس ، الزمن الآلهى السرمدى الذى لا يفنى ولا تفنى معه الأشياء • واذا كان زمن الانسان حسى ومحدود لأنه يبدأ بالميلاد وينتهى بالوفاة ، فان الانسان الشعبى يحاول أن يزحزح عن نفسه ، قدر الامكان ، هذا الاحساس بالزمن المحدد ليعيش فى الزمن المطلق ، الزمن الالهى المتجدد •

ومن هنا كان حسه قويا بالصلة الوثيقة بين عالم الأحياء وعالم الأموات • فعلى الرغم من أنه يحس بمأساة الموت ساعة وقوعه ، فهو سرعان ما يعبر عن العلاقة الوثيقة التى تربطه بعالم الموتى ، كأن يراهم فى منامه وهم يتحدثون معه فى شئون حياته ، أو يتوهم أنهم يزورونه فى شكل طائر ، أيا كان نوعه ، فى ساعة محددة من الزمن • كما أنه يعبر عن علاقته الوثيقة بهم فى حرصه الشديد على زيارتهم فى قبورهم فى مواسمه وأعياده وكأنهم يشاركونه هذه المواسم والأعياد •

ولهذا كذلك فان الانسان الشعبى حريص على احياء احتفالاته القديمة مع كل دورة من أدوار السنة ، لأن هذا الاحتفال الدورى يعنى الحياة المتجددة الشبيهة بزمن الكون المتجدد ، ومن ثم فهو يشعر بتجديد نفسه •

ولهذا فهو يحتفل بموسم الزرع وموسم الحصاد على نحو قريب من احتفال أجداده بهذين الموسمين ، لأن الزرع الجديد يعنى الميلاد الجديد •

ولهذا كذلك فهو يزحزح الشخوص التاريخية من عالم الواقع الى عالم المثال بحيث تقترب بطولتها من البطولة الأسطورية القديمة • فان لم تكن الشخوص تاريخية ، بل مجرد شخوص قصصية ، فهو يجعلها على صلة وثيقة بالعالم الآخر ، وقادرة على أن تحضر منه شيئا ، حسيا كان أم معنويا ، الى عالم الانسان •

ثالثا : وكما تحس الجماعة الشعبية بارتباطها الوثيق بالعالم الآخر ، فانها تحس كذلك علاقتها الوثيقة بالطبيعة • فالانسان الشعبى

على صلة وثيقة بالنبات والحيوان والطير ، وبشروق الشمس وغروبها، وبكل مظهر من مظاهر الطبيعة • ولهذا فانه سرعان ما ينتقل من داخل نفسه الى الخارج ، ومن الخارج الى داخل نفسه ليجد العلاقة الرمزية بين عالمه الداخلى والخارجى ، فيعبر عنها بأشكال مختلفة فى تعبيره الأدبى •

يقول المثل الشعبى : قالوا للغراب بتسرق الصابونة ليه ، قال الأذية فى طبع • فالغراب هنا ليس مجرد طائر بعيد عنه ، بل هو جزء من حياته وجزء من عالمه الداخلى • ولهذا فقد وجد فيه ما يجد فى عالمه من شرور •

ويقول مثل اخر : الحمار لما يشبع ، يبعزق عليقه •

ويشير هذا المثل الى أى حد يراقب الانسان الشعبى الظواهر الطبيعية بوصفها جزءا لا يتجزأ من حياته ، واذ به يجد فيها ، فى لحظة من الادراك ، معانى تبلور موقفه من الحياة •

ويقول الموال :

جمل حداه ألم تحت الحمل مدارى
لا الجمل بيقول آه ولا الجمال بيه دارى
قول ، دارى على بلوتك ياللى ابتليت دارى

فصورة الجمل فى هذا الموال صورة منتزعة من الواقع دون تحريف ، ولكنها عندما تدخل فى اطار الفن تنحرف عن الواقع الطبيعى لترمز الى واقع نفسى . فاذا بها تعكس موقف الانسان وهو مثقل بالهموم التى يداريها . اذ لا جدوى من كشفها للناس •

هذه الحياة الموحدة بين العالم الواقعى للانسان الشعبى وعالم المثال ، وبينه وبين الطبيعة ، جعلت الانسان الشعبى يعيش فى اطار من العلاقات المنظمة — سواء كانت بين عالمه المرئى وعالمه غير المرئى ، أو بينه وبين الأشياء التى توجد من حوله • وهذا النظام ينعكس بدوره على حياته الاجتماعية فيترتب عليها الاصطلاح على مجموعة من القيم بحيث يعد من يتعداها خارجا على عرف الجماعة ، بل أنه يكون أشبه بمن يتعدى على الشىء المحرم •

وفى اطار هذه الحياة المنظمة سلوكيا وفكريا تبرز وظيفتـــه التعبير الشعبى من حيث كونه منظما لحياة الجماعة ودرعا حاميا لها من التخلخل ان أى شكل من أشكال التعبير الأدبى الشعبى ينحو الـــى تصوير عالم الفوضى الى جانب تصويره لعالم النظام •

ومن هنا كانت أهمية رواية الأدب الشعبى فى حياة الجماعة • انه فن بكل ما للفن من امكانيات لغوية وتصويرية ، وهو فى الوقت نفسه فن يوجه الفرد الذى يعيش فى اطار الجماعة ، نحو وحدتها وتماسكها ونظامها الذى اصطلحت عليه •

وبعد ، فلعلنا نوفق فى دراسة الاجناس الأدبية الشعبية التـــى يتناولها هذا الكتاب • ولعل القارىء يدرك ـــ بعد أن يفرغ من قراءته ، أن الأدب الشعبى غنى حقا بالمغزى والرموز التى تكشف عن تجـــارب الفرد الشعبى مع نفسه ومع الكون كله • ولا عجب بعد هذا أن يدرك أن العالم كله يتحدث من خلال الرموز •

القاهرة فى أغسطس ١٩٨١

نبيـــلة ابراهيم ســـالم